ملخص خطبة الجمعة

بتاريخ ٢٠٢٤/١٢/٦

يتابع حضرته الحديث عن تفاصيل صلح الحديبية.

وقد ذكر ثغرة في هذه المعاهدة أدت إلى نتائج مهمة فيما بعد:

"لا يأتِيك مِنا رجل وإِن كان على دِينِك إِلا رددته إِلينا."

١. استثناء النساء:

ففي هذا الشرط لم يرد ذكر النساء، فبعد فترة قصيرة من المعاهدة، وصلت بعض النساء المسلمات إلى المدينة من مكة هاربات من أسر الكفار، أولهن أمّ كلثوم، ابنة الزعيم المشرك المتوفى عقبة بن أبي معيط، وهي أخت عثمان بن عفان ﷺ من جهة الأم. التي ادّعت أن المعاهدة لا تشمل النساء لأن المرأة جنس ضعيف وتُعدّ تابعة للرجل، وإعادتها يعني دفعها نحو موت روحي وحرمانها من الإسلام. لذلك لم يكن استثناء النساء من المعاهدة ضروريا من حيث المعاهدة فقط، بل كان ضروريا بحسب مقتضى العقل والعدل أيضا. فحكم النبي ﷺ لصالح أمّ كلثوم، وأعاد أقاربَها صفر اليدين. أيد اللهُ تعالى هذا القرار، وأنزل في تلك الأيام آيات قرآنية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾، وإن كنّ متزوجات، فادفعوا مهرهن حتما لأزواجهن المشركين.

٢. حادثة أبي بَصير ﷺ:

بعد فترة قصيرة من وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وصلها من مكة شخص اسمه أبو بَصير عتبة بن أسيد الثقفي، مسلمًا وهاربًا من أسر أهل مكة. أرسلتْ قريش رجلين للحاق به، والتمسوا من النبي ﷺ تسليمه لهما وفقًا لشروط المعاهدة. فاستدعى النبي ﷺ أبا بصير وأمره بالعودة إلى مكة. صرخ أبو بصير قائلاً: أنا مسلم، فسيؤذونني في مكة ويجبرونني على الردة عن الإسلام.

قال ﷺ: نحن مضطرون بسبب المعاهدة ولا يمكننا إبقاؤك هنا. وإذا صبرتَ لوجه الله تعالى سيفتح الله لك طريقًا.

فاضطر أبو بصير للعودة مع هؤلاء، لكن لما كانت في قلبه مخاوف شديدة من أنواع الظلم والتعذيب، عندما وصلت القافلة إلى ذي الحُليفة، اغتنم أبو بصير الفرصة وقتل زعيم القافلة، وكاد يقتل الآخر أيضا ولكنه هرب حاميا نفسه ووصل إلى المدينة قبل أن يصلها أبو بصير.

فروى الرجلُ قصته متلهفًا ولاهثا، وقال إن صاحبه قد قُتل و أنه أيضا تعرض للموت. سمع النبي ﷺ قصته وطمأنه. وفي هذه الأثناء جاء أبو بصير حاملًا سيفه وقال للنبي ﷺ: كنتَ قد سلّمتَني لقريش يا رسول الله، وانتهت مسؤوليتك، لكن الله أنقذني الآن من القوم الظالمين، و لم تعد عليك

الآن أية مسؤولية تجاهي. قال النبي ﷺ بصورة عفوية ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ! لو كانَ له أحَدٌ. وتقول عنه رواية البخاري: "فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم." فخرج من هناك سرًّا، وبدلاً من ذهابه إلى مكة، اتجه نحو ساحل البحر الأحمر ووصل إلى سيف البحر.

وسرعانما لحق به سبعون من ضعاف المسلمين الذين كانوا قد أسلموا سرًّا في مكة وكان من بينهم أبو جندل. وبدأت مواجهات هؤلاء المهاجرين مع قوافل قريش.

فكانت النتيجة أن قريشا استسلمت في وقت قصير وأرسلت وفدًا إلى النبي ﷺ، متذرعين بصلة القرابة وطالبين إلحاق المهاجرين في سيف البحر إلى المدينة وضمهم إلى نظامه السياسي، فوافق النبي ﷺ على هذا الطلب وأرسل رسالة إلى أبي بصير وأبي جندل يخبرهم بأن قريشًا قد عدلوا المعاهدة برضاهم، فيجب عليهم الآن الانتقال إلى المدينة. عندما وصل رسول النبي ﷺ إلى سيف البحر، كان أبو بصير مريضًا وراقدًا في حالة صحية حرجة. أمسك أبو بصير الرسالة المباركة بشغف، وبعد وقت يسير لفظ أنفاسه الأخيرة وهو في هذه الحالة.

اعتراضات المؤرخين:

الأول: هو أن المعاهدة كانت تشمل الرجال والنساء، لكن النبي محمدا ﷺ استثنى النساء عنوة.

الرد: الألفاظ الواردة في صحيح البخاري للمعاهدة هي: "لا يأتِيك مِنا رجل وإن كان على دِينِك إلا رددته إلينا." وإذا قيل إن في بعض الروايات التاريخية لم ترد كلمة رجل، كما في كتاب السيرة الأكثر شهرة لابن هشام، "من أتى محمدًا مِن قريش بِغيرِ إذنِ وليِه ردَّه عليهم." فلا شك أن في الكلام العام، تُستخدم صيغة المذكر ويُقصد بها الرجال والنساء أحيانا. لكن من الواضح أن العبارة محل النقاش ليست من هذا النوع، بل هي عبارةُ معاهدةٍ لها مكانة قانونية، بل أعلى من ذلك. فكل كلمة فيها يتم اختيارها بتدبر وتفكير، وتُختار الكلمات بعد نقد كل فريق لها وموافقته عليها. لذا، في مثل هذه العبارة، يُختار حصرا المعنى الأكثر تحديدًا وتخصيصًا.

فما فعل النبي ﷺ كان عين الصواب نظرا إلى نص الاتفاقية، وليس هذا فحسب، بل أيضًا بالنظر إلى مبادئ العدل والإنصاف والرحمة والشفقة، فكيف يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع النساء المسلمات الضعيفات إلى أيدي الكفار الظالمين ليصبحن عرضة لاضطهادهم.

الاعتراض الثاني فيما يتعلق بواقعة أبي بصير، فهم يعترضون أن النبي ﷺ قد ارتكب مخالفة للمعاهدة بإشارته إلى أبي بصير بأنه يمكنه تشكيل جماعة منفصلة وإنجاز مهمته بدلاً من العودة إلى مكة.

يكتب مرزا بشير أحمد: إن جميع تفاصيل شروط المعاهدة وخلفيتها الكاملة كانت أمام أعينهم (قريش). فحين لم يعترض على فعل النبي ﷺ قريشُ مكة الذين كانوا قد أبرموا هذا الميثاق و لم يعتبروه مخالفاً

للعهد، فكيف يحق الاعتراض للذين أتَوا بعد ألف وثلاثمائة سنة والذين تخفى عنهم الكثير من التفاصيل الدقيقة ولا يملكون معرفة كاملة بخلفية هذا العهد؟ فأولئك المشركون لم يعترضوا، والمستشرقون المعاصرون يعترضون على الإسلام.

علاوة على ذلك، من الثابت أن النبي ﷺ حين أرسل بعد صلح الحديبية رسالة تبشيرية إلى قيصر الروم، كان أبو سفيان رئيس مكة في الشام، فاستدعاه هرقل إلى بلاطه وطرح عليه بعض الأسئلة عن النبي ﷺ، من بينها: وسأله: هل خالف هذا المدعي للنبوة في قومك أي عهد؟ فأجاب أبو سفيان: "لا، لم يخالف محمد (ﷺ) أي عهد قط، ولدينا الآن عهد معه وأنا لا أستطيع أن أقول ما سيظهر من جانبه حتى نهاية هذا العهد". وقد ذكر المؤرخون كلُّهم واقعة أبي بصير وأم كلثوم قبل إرسال الرسالة إلى قيصر الروم.

لقد أوفى النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ المعاهدة عند إرسال أبي بصير من المدينة إلى مكة، وأوفى بروح المعاهدة كما كان المقصد الأصلي من الشرط، حيث أبقى أبا بصير وأصحابه خارج دائرة سياسته. وبالتالي، بقي صادقًا من كل جانب، بينما وقع كفار مكة في شباكهم التي ألقوها بأنفسهم، وانتهى بهم الأمر بالذل حتى جاؤوا إليه ﷺ ليقولوا إنهم يستبعدون هذا الشرط من المعاهدة.

وأما الزعم بأن النبي ﷺ بقوله: "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" يعترضون أنه في هذه الكلمات طلب من أبي بصير بالإشارة أن يبدء بالحرب مع قريش، فإن سياق الكلام والجمل البدائية تُثبت بشكل كافٍ أن نية النبي ﷺ كانت توبيخ أبي بصير لا تحريضه على الحرب.

هل يعقل أن يبدأ شخص كلامه بالسخط والملامة قائلا " وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ "، هل يمكن أن يقول بعدها ينبغي إشعال الحرب؟

والأمر الأكثر أهمية هو كيف أثرت هذه الكلمات على أبي بصير نفسه. وفي نفس الرواية يأتي: فلما سمع أبو بصير هذه الكلمات، أدرك أنه ﷺ سيرده إلى مكة، فهرب سرًا إلى اتجاه آخر.

للأسف الشديد، أن الشخص المخاطَب بهذه الكلمات فهم أن النبي ﷺ لم يحب فعله وسوف يعيده إلى مكة، ولكن هؤلاء القادمين بعد ثلاثة عشر قرنًا يقولون إن النبي ﷺ حرّض أبا بصير على تشكيل جماعة منفصلة وإشعال الحرب. هذه هي المعايير المزدوجة للمدعين بالإنصاف والتي خلقت الفساد في العالم دائمًا وما زال هذا الفساد مستمرا حتى اليوم.

وأنهى حضرته الخطبة بالدعاء: نسأل الله تعالى أن يمنح العقل للعالم وللمسلمين خاصة، وأن يحميهم من هذه الفتن الدجالية. (آمين)

*****